

أبنائنا

كيف نعوّدهم العدل في ميدان الخدمة الاجتماعية

بقلم الأستاذ محمد الهيباوى

نحن هنا نخطب الجمهور ممن يتلقون دعوة الإصلاح الاجتماعي بالايان والمبادرة إلى العمل ، أو بالايان والنوم عن العمل إلى ما شاء الله .

ولسنا نريد في هذا الخطاب أن نتحدث فيما وصلت إليه جهود الباحثين في مسائل التربية وأطوار النفس من النظريات العلمية لتقتنع به أحدا ، ولكننا نريد أن نضع أمام الجميع صورا يشاهدونها كل حين على مدار الحياة الخاصة في البيوت والمجامع الأهلية وعلى مدى الحياة العامة في الفضاء الواسع .

فمن هذه الصور أن الطفل لا يزال يأخذ من بيت أهله كل ما يسمعه و يراه حتى تنطبع في نفسه هذه المسموعات والمرثيات ، فإذا كانت ألفاظا كلامية أصبحت عادة شائعة في كلامه ، وإذا كانت خلقا حسنا أو رديئا صارت سجية مسيطرة على مظهر أخلاقه ، وإذا كانت حركة أو عملا ظلت في أعماله وحركاته تقليدا ملازما وحكاية مألوفة .

ومثل هذه الصورة صورة أخرى تظهر حينما يتجاوز دائرة أهله في بيتهم الخاص إلى دائرة رفاقه في الحارة أو المدرسة ، فإنه حينئذ يأخذ عن هؤلاء الرفاق ما يقولون وما يفعلون ، ثم لا يلبث أن يمرن على ذلك ويألفه فيصيح عادة يجرد عليها لسانه وتتحرك بها نفسه ولا يردها لمبعه ولا تضيق عنها خواطره .

فإذا انتقل هذا الطفل إلى بلد آخر أخذ عن مخالطهم فيه ما لم يكن قد رآه ولا سمعه فيما مضى من أيامه ، وربما طال مقامه بين هؤلاء الخاطباء أمدا تنقلب فيه هذه البيئة الثانية على ما تركت البيئة الأولى في نفسه فإذا هو شيء آخر غير الذي كان .

وإنك لتستطيع أن تجد شواهد هذه الحقيقة فيما تسمعه وفيما يتبع تحت الأبصار ، فانت ترى محصول الطفل من الألفاظ التي يستعملها في التعبير عن أغراضه وميوله ، ومن العادات التي تصدر عنها أفعاله وعواطفه ، صورة مصغرة من الألفاظ والعادات التي تعرفها

فيمن نشأ على أيديهم ومن أثر فيه الاختلاط بهم ، وهذه مسألة لا يحتاج الانسان العادى فى معرفتها إلى شىء مما يقرره الباحثون فى أصول التربية ومكوناتها .

وقد أردنا أن نمهّد للوضوع بهذا الذى قلناه لنظهر سمولة الجواب على السؤال نفسه :
كيف نؤد أطفالنا العمل فى ميدان الخدمة الاجتماعية ؟ . . .
عندنا البيت وعندنا المدرسة .

فى البيت والد الطفل والدته ، وأخوه وأخته ، والخادم أيضا ، وهوين هؤلاء جميعا ورقة ينطبع فيها كل لون يتصل بحسه من الأقوال والأفعال والميول والعواطف والأخلاق والعادات كما تنطبع الصورة ولونها على الورقة البيضاء ، فإذا حرص أبواه على أن يعتاد منهما ومن أهل البيت كلهم محاسن الأخلاق والعادات كالصدق والأمانة والمهابة والعدل والحق وعزة النفس وعلو الهمة ، وكالنظافة والنشاط والتجمل بما يليق وامتنكار ما لا يليق والعطف على الضعيف ووضع الاحسان فى موضعه والقيام للجماعة بما يسعدها ويسعد الفرد فى ضمنها ، عرفا إذن كيف يجعلانه فى ميدان الخدمة الاجتماعية جنديا صغيرا . وكيف يزودانه وهو رجل كبير بمواهب البطل الذى لا يمل العمل فى هذا الميدان .

وإنا نعتقد أن فى استطاعة كل والد ووالدة أن يجدا الطريق إلى ذلك ، فليس أسهل من أن يتحدث كلاهما إلى طفله بما يشعره أن الأطفال الآخرين أخوته فى قرابة الطفولة الواحدة ، ثم فى قرابة الجوار الودود ، ثم فى قرابة المواطنة والجنس ، ثم فى قرابة الانسانية التى تقم الإخاء بين جميع الناس ، حتى إذا استقرت هذه المعانى فى نفسه أعطياه بأفعالها أمثلة التطبيق ، وأفهامه بعد ذلك أن الانسان الكامل هو الذى يبذل الخير بيده ولسانه ، ويعمل حصّة من تفكيره وعنايته وقفا على هذا الخير . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن تقصير الآباء والأمهات فى تمهيد أطفالهم بهذا الغذاء الصالح لا يرجع إلى الجهل به أو العجز عنه أكثر مما يرجع إلى أنهم لا يتجهون إليه بارادة صادقة وعزم صحيح .

أما المدرسة فوسيلتها أوفر ومجالها أوسع ، فهى من صحّة المعرفة وتمام الاستعداد بحيث تستطيع أن تشبع الطفل بما لا يشبعه البيت .

ناظر المدرسة أو ناظرتها كلاهما قدوة متبعة أمام تلاميذهما الأطفال ، ومعلم المدرسة أو معلمتها كلاهما أيضا هو هذا القدوة ، وكل شىء هناك مصدر للإيحاء وأصل للتقليد والمحاكاة ، ولا يزال هؤلاء التلاميذ الأطفال يتأثر بعضهم ببعض فيما تنضح النفوس على الألسنة وما تلقيه الأفواه فى الآذان . وقد يجحد من مدارس رياض الأطفال أن تمهيد أطفالها بما يوقظ فيهم قوة الملاحظة ويترجمهم على دقة الذوق وسلامة الانتباه ، ولكن

أليس من الحسن الجميل أن يتضمن النظام الذي يجري عليه العمل في هذه الرياض دعوة الأطفال إلى مباريات في مختلف وجوه الخير ، كإغاثة الملهوف ، وإقالة العاثر ومواساة المحزون ، وإجابة المضطر ونجدة المستجير ؟ ثم لماذا لا يمتحنون فيهم فضيلة الاحسان كاطعام الجائع وكسوة العارى وإدخال الأمل على قلب المريض اليائس والأخذ بيد الشيخ المتهدم والسبق إلى كل عمل طيب والاجتهاد في كل دعوة سالحة ؟ ومن المفهوم أن يكون لأفاضل النظائر والمعلمين وفضليات الناظرات والمعلمات نصيب عملى تتم به في هذا الميدان أمثلة القدوة المستجابة .

والآن نرجو أن نكون قد وجدنا جواب السؤال : كيف نمؤد أطفالنا العمل في ميدان الخدمة الاجتماعية ؟ وهو جواب ينتميه التفصيل وتقوته سعة الاستشهاد بكثير من الجزئيات الممكنة ، ولكنه مع ذلك ينير الطريق لمن يريد أن يعمل ، ونحن لانتم وسيلة بعينها ولا نطلب للغاية المرجوة طريقا دون أخرى ، وإنما بعيننا أن ينشأ أطفالنا في هذا الميدان جنودا مزودين على مدى الحياة بروح معنوية رفيعة .

نريد أن يدخل في تصوير الطفل أن له أبا أبر وأرحم من أبيه ، اسمه الوطن ، وأن له أما أحنى وأرفق من أمه ، اسمها الأمة ، وأن له بعد البيت الأصغر الذى يلقى فيه أباه وأمه وإخوته بيتا أكبر وأرحب ، اسمه مصر ، نعم ، ونريد أن يدخل في تصوره مع هذه المعانى أنه لا يزال يعيش من نعم الله وفضل هذا الوطن عليه بالهواء والماء والغذاء والكساء وحرارة الشمس ونور القمر ، فنصبيه من الحب لا يعيد له نصيب آخر ، وحقه من الوفاء لا يقوم به غير العمل الطيب يبذله في ميادين الخير والإصلاح أبنائه الأبرار الطيبون ما

محمد الهياوى